حضارة الحياة في الإسلام وخطاب إلى العقل المعاصر

د. أمال محمد ربيع

كلية الأداب- جامعة عين شمس

المستخلص

يعد حقل الدراسات الحضارية ميداناً لصراع الأكفار والأيديولوجيات، حيث إن كل حضارة من الحضارات تنشأ عن موقف معين تتخذه من الإله والطبيعة والحياة والإنسان، فتتكون من هذا الموقف معتقدات تبدو في مختلف مظاهر عيشها وفعلها.. ولأن أفكار الناس وعقائدهم متعددة ومتنوعة فقد تعددت تبعاً لذلك الحضارات، ولكل علم نظريته في المعرفة، التي تتمحور حولها التساؤلات النهائية التي تتصل بالإنسان ووجوده ومصيره وموقفه من الوجود. كما أن لكل فلسفة أو أيدولوجية إجابتها عن تلك التساؤلات وهو ما يشكل رؤية للعالم.

الكلمات المفتاحية:

الحضارة– والثقافة والمدنية – حضارة الموت – حضارة الحياة.

Abstract;

The field of civilization studies is a field for the conflict of infidels and ideologies, as every civilization arises from a certain position that it takes on God, nature, life and man, and from this position are formed beliefs that appear in the various aspects of their living and doing. And every science has its theory of knowledge, around which the final questions relating to man, his existence, his destiny, and his position on existence revolve. Also, every philosophy or ideology has its answer to these questions, which constitutes a vision of the world.

Key words: Civilization – culture and civilization – the civilization of death – the civilization of life.

المقدمة:

تعد قضية الحضارات وما تطرحه من أسئلة تثير عديد من المفكرين والباحثين من أهم القضايا المطروحة على الساحة العالمية خاصة بعد النهضة الغربية الحديثة، بل إن شئت فقل بعد أن أثار بعض مفكري الحضارة الغربية الحديثة مسألة انفراد حضارتهم الغربية وتقدمها الهائل ومحاولتهم بخس حقوق الحضارات القديمة أو سلبها، وتناسي أهل تلك الحضارة فضل هذه الحضارات السابقة عليها فيما وصلت إليه وفيما وصل إليه الغرب عموماً من تقدم، وحضارة، ورقي. تلك الحضارة التي تشدق بعض منتميها بأنها آخر الحضارات، أو الحضارة التي لا مثيل لها، حيث أخذ بعضهم يقارن بينها وبين الحضارات السابقة من حيث عوامل النشأة والازدهار ثم الاضمحلال والانهيار، أو من حيث ما في هذه الحضارة من علوم وثقافات وأيديولوجيات لم توجد عند من سبقتها، في حين حمل بعضهم الآخر على عاتقه مهمة الدفاع عن الحضارة الغربية والزود عنها بشتى الطرق الصحيحة وغير الصحيحة.

إننا الآن نعاني عناءً شديداً من تضليل الحقائق، وتزييف التاريخ، وبخس دور الحضارات القديمة وإهداره فيما يتعلق بما وصل إليه الغرب، حتى إننا أصبحنا لا نسمع سوى ما فعلته الحضارة اليونانية ممثلة في فلاسفتها سقراط، وأفلاطون وأرسطو، والحضارة الغربية ال حديثة ممثلة فيما فعله علماؤها التجريبيون وفلاسفتها فقط، حتى يكاد بعضنا يظن أن العالم منذ بدء الخليقة وحتى اليوم لم يأتِ إلا بحضارتين هما: الحضارة اليونانية القديمة، والحضارة الغربية الحديثة. وكأن الحضارات الأخرى: كالحضارة الإسلامية، وحضارات الشرق القديم، ... وغيرها لا وجود لها، ولا فضل لها على تاريخ الحضارات اللاحقة لها.

من أجل ذلك أردنا أن نلقي الضوء على قضية الحضارات، بداية من التعريف بها، وبفلسفة الحضارة، وتاريخ الحضارة، وعوامل نشأة الحضارات، وعوامل

تقدمها وازدهارها، وعوامل تشرنقها أو اضمحلالها أو انهيارها، لتوضيح ما للحضارات من إيجابيات وسلبيات.

أولاً: معنى الحضارة:

إختلف المفكرون حول تعريف الحضارة ولم يتفقوا على تعريف جامع لها فكل مفكر يعرفها حسب منظوره إليها؛ فمنهم من يعرفها من منظور ديني، أو من منظور ثقافي وفكري، أو من منظور إجتماعي، أو منظور سياسي، أو من منظور إقتصادي، أو منظور عمراني، ... الخ.

الحضارة: هي الجهد البشري في شتى الميادين وهي شاملة لكثير من جوانب الحياة ومحيطة بها.

الحضارة في اللغة العربية:

من الفعل "حضر" على وزن قعد، يقال: حضر الغائب حضوراً؛ أي قدم من غيبته، وحضرت الصلاة فهي حاضرة، و "الحضر" خلاف البدو، وبالنسبة إليه "حضري": أقام بالحضر، و"الحضارة" سكون الحضر، والحَضَرة والحَضْرة والحاضرة: خلاف البادية وهي المدن، والقرى، والريف، وسميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار".

تعد كلمة حضارة الترجمة الشائعة للكلمة الإنجليزية Civilization والتي يعود أصلها إلى جذور عدة ففي اللغة اللاتينية بمعنى المدنية city citizen بمعنى ساكن المدينة، وهو ما يعرف به المواطن الروماني. وقد عرَّف أحد الباحثين الحضارة برقة طباع شعب، وعمرانه، ومعارفه، ومراعاة الفائدة العلمية العامة. وقد عرفها بعضهم على أنها: نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة في إنتاجه الثقافي. وهناك من جعل المفهوم مرادفاً لمفهوم الثقافة، أو قاصراً على نواحي التقدم مثل الألمان. في حين جعله المفكرون الفرنسيون شاملاً لكل أبعاد التقدم.

وقد ذهب ابن خلدون حين تحدث عن الحضارة إلى اعتبارها مشتقة من الإقامة في الحضر بخلاف البادية.

هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفاه وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً منحصراً.

الحضارة عند ول ديورانت:

هي نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه االثقافي، وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون.

ويتداخل مفهوم الحضارة مع المدنية في كثير من الأذهان والأحيان فيصبح لهما نفس المعنى في الاستعمال أو المدلولات. فالمجتمع المدني والمجتمع الحضري تعبيران عن مجتمع مرتبط بالمكان والزمان تنظمه قوانين وضوابط معلومة ومتفق عليها.

لا شك أن الحضارة كونية مهما تنوعت وتعددت أماكنها وشعوبها، ومهما تقاربت أو تباعدت في الزمان والمكان، فقد بزغت تحت سماء الكرة الأرضية، وهي امتزاج لحلقات بنائية متصلة يكمل بعضها الآخر فالإنسان اكتشف النار وصنع الفخار المشوي ليظل حياً وباقياً، كما صنع أدواته وآلاته وزرع الأرض ليوفي الحاضة الحياتية وللتوافق مع الطبيعة ولتسهيل طرق العيش، فقد بنوا هذه الحضارة بالمشاركة الجماعية. وقد قامت الحضارات التاريخية على أكتاف العبيد (الحضارة الإغريقية، الرومانية، الفرعونية... الخ) وحتى الإنسان البدائى ترك أدواته وآلاته الحجرية التي لا تزال آثاراً بيننا حتى اليوم، وهذه الآثار الحجرية والرسوم الجدارية في الكهوف تدل على أن الإنسان فنان بطبعه وصانع بعقله.

إنقسم الباحثون إلى قسمين فى مدلول لفظ الحضارة:

أ. فريق يرى الحضارة: تعنى مجموعة المظاهر الفكرية والمادية في المجتمع.

ب. وفريق يرى الحضارة: تعنى المظاهر الفكرية فحسب في المجتمع، ومع القول بأن الفصل الحاد والتفرقة الدقيقة بين مدلولات الألفاظ في المجال الإجتماعي أمر بعيد التحقيق فلا بد من التماس مدلول لمصطلح الحضارة يتوخي فيه المطابقة للواقع قدر المستطاع.

إن القول بوجود أمة ووجود مجتمع يعنى بالضرورة وجود ما يميز الأمة عن غيرها من الأمم ووجود ما يميز المجتمع عن غيره من المجتمعات، رغم التشابه الذي يكون بين الأمم والمجتمعات، وكذلك لا يضير التمايز بين الأمم تسرب بعض الظواهر الاجتماعية من أمة إلى أمة، ومن مجتمع إلى مجتمع، وظهورها في المجتمع الجديد جنباً إلى جنب مع العناصر الاجتماعية الأولية فيه، ما دام جسم المجتمع الكلي يظل محتفظاً بسماته العامة التي تحفظ المجتمع وعلى الأمة شخصيتها التي تميزها عن غيرها من الأمم والمجتمعات، وإذا أمعنا النظر لاستكشاف القواعد الأساس التي تظل على الدوام، تمد شخصية الأمة بالرواء وتهبها القوة والبقاء، نجدها ماثلة في طريق الأمة في الحياة، وهي طريق تشكل عقيدة الأمة، قاعدتها وتشكل القوانين والأنظمة والأفكار القائمة على هذه العقيدة فروعها، وعليه:

فإن حضارة أية أمة هي مجموعة المفاهيم الموجودة عند الأمة حيال الكون والإنسان والحياة – وبمعني آخر عقيدة الأمة – وما ينبثق عن هذه المفاهيم – أي عن العقيدة من قوانين وأنظمة وأفكار تعالج المشكلات المتعلقة بأفراد الناس وجماعاتهم في المجتمع وما يتصل بهم من مصالح تعود عليهم، فعقيدة الأمة وما ينبثق عنها من حلول لمشكلات الأمة على شكل قوانين وأنظمة وأفكار، هي التي تمنح الأمة شخصيتها الحضارية المتميزة، ويمكن أن تكون برأينا مدلول مصطلح لفظ

الحضارة، وعند تبني هذا المدلول للفظ الحضارة يجد المرء سهلاً معرفة ما بين الحضارات الغربية والمادية والإسلامية من فروق ويدرك سر التمايز بينها.

على أن ذلك لا يعني إسقاط العلاقة بين المظاهر المادية والمظاهر الفكرية في حياة الأمة وحضارتها، كما لا يعني نفي التأثير المتبادل بينهما سلباً وإيجاباً، فقد تكون المفاهيم والأفكار لدى أمة من الأمم على درجة من المحدودية والضيق الذي يعيق تقدم المظاهر المادية ويربك البحث والاستقصاء في طبيعة الأشياء وخصائصها، ويجعل معه وسائل الانتفاع بالحياة ضعيفة بدائية، والنكد الذي تورثه المفاهيم والأفكار في هذه الحالة لا سبيل إلى إخفائه، وإحساس الناس بجرمه ومساوئه لا يدفع بالتأويلات.

ومن جهة أخرى فقد تطورت المظاهر المادية كثيراً بتقدم العلم وقضاياه وصرنا نشهد ذلك في مجالات العمران والاتصالات وغيرها، وجني الفكر من ذلك خيراً عميماً، وانتفعت الأنظمة والأفكار والمفاهيم إن في ميدان السياسة والاقتصاد والحياة الاجتماعية، أو في مجال المحاكم والإدارة والأمن ومؤسسات التعليم تقدم العلم وثماره من المظاهر المادية كثيراً، وصار بإمكان الفكر أن يجد، إذا أحسن استعمال عطاء العلم، صورته في الحياة العملية أوضح وأكثر امتداداً، ومع وجود هذا التأثير المتبادل بين المظاهر الفكرية والمادية فإن هناك نكهة خاصة، وشخصية معينة، تتميز بها حضارة كل أمة دون غيرها، وتتمثل بما عند الأمة من عقيدة وما ينبثق عنها من الأفكار والأنظمة.

على أن ذلك لا يعني إسقاط العلاقة بين المظاهر المادية والمظاهر الفكرية في حياة الأمة وحضارتها، كما لا يعني نفي التأثير المتبادل بينهما سلباً وإيجاباً، فقد تكون المفاهيم والأفكار لدى أمة من الأمم على درجة من المحدودية والضيق الذي يعيق تقدم المظاهر المادية ويربك البحث والاستقصاء في طبيعة الأشياء وخصائصها، ويجعل معه وسائل الانتفاع بالحياة ضعيفة بدائية، والنكد الذي تورثه

المفاهيم والأفكار في هذه الحالة لا سبيل إلى إخفائه، وإحساس الناس بجرمه ومساوئه لا يدفع بالتأويلات.

ومن جهة أخرى فقد تطورت المظاهر المادية كثيراً بتقدم العلم وقضاياه وصرنا نشهد ذلك في مجالات العمران والاتصالات وغيرها، وجني الفكر من ذلك خيراً عميماً، وانتفعت الأنظمة والأفكار والمفاهيم إن في ميدان السياسة والاقتصاد والحياة الاجتماعية، أو في مجال المحاكم والإدارة والأمن ومؤسسات التعليم بتقدم العلم وثماره من المظاهر المادية كثيراً، وصار بإمكان الفكر أن يجد، إذا أحسن استعمال عطاء العلم، صورته في الحياة العملية أوضح وأكثر امتداداً، ومع وجود هذا التأثير المتبادل بين المظاهر الفكرية والمادية فإن هناك نكهة خاصة، وشخصية معينة، تتميز بها حضارة كل أمة دون غيرها، وتتمثل بما عند الأمة من عقيدة وما ينبثق عنها من الأفكار والأنظمة.

على أن ذلك لا يعني إسقاط العلاقة بين المظاهر المادية والمظاهر الفكرية في حياة الأمة وحضارتها، كما لا يعني نفي التأثير المتبادل بينهما سلباً وإيجاباً، فقد تكون المفاهيم والأكفار لدى أمة من الأمم على درجة من المحدودية والضيق الذي يعيق تقدم المظاهر المادية ويربك البحث والاستقصاء في طبيعة الأشياء وخصائصها، ويجعل معه وسائل الانتفاع بالحاية ضعيفة بدائية، والنكد الذي تورثه المفاهيم والأفكار في هذه الحالة لا سبيل إلى إخفائه، وإحساس الناس بجرمه ومساوئه لا يدفع بالتأويلات.

ومن جهة أخرى فقد تطورت المظاهر المادية كثيراً بتقدم العلم وقضاياه وصرنا نشهد ذلك في مجالات العمران والاتصالات وغيرها، وجنى الفكر من ذلك خيراً عميماً، وانتفعت الأنظمة والأفكار والمفاهيم إن في ميدان السياسة والاقتصاد والحياة الاجتماعية، أو في مجال المحاكم والإدارة والأمن ومؤسسات التعليم بتقدم العلم وثماره من المظاهر المادية كثيراً، وصار بإمكان الفكر أن يجد، إذا أحسن

استعمال عطاء العلم، صورته في الحاية العملية أوضح وأكثر امتداداً، ومع وجود هذا التأثير المتبادل بين المظاهر الفكرية والمادية فإن هناك نكهة خاصة، وشخصية معينة، تتميز بها حضارة كل أمة دون غيرها، وتتمثل بما عند الأمة من عقيدة وما ينبثق عنها من الأفكار والأنظمة.

ثانياً: الفرق بين الحضارة والثقافة والمدنية:

الفرق بين الحضارة Civilization والثقافة Culture:

أصل كلمة الحضارة عند الأوروبيين: "كلمة الحضارة مأخوذة من لفظين يستعملان للدلالة على معنى الحضارة وهما: Culture & Civilization فبالنسبة: Culture؛ مأخوذة من اللاتينية culturune من فعل colere بمعنى حرث ونمى، وفي العصور القديمة الوسطى تطلق على تنمية الأرض ومحصولها.

يقول علي عزت بيغوفتش عن الفرق بين الثقافة والحضارة – حيث يتصور أغلب الناس أنهما مصطلحين مترادفين، بينما لدى بيغوفتش وجهة نظر أخرى تماماً: "هناك خلط غيريب بين فكرة الثقافة وفكرة الحضارة. الثقافة تبدأ "بالتمهيد السماوي" بما اشتمل عليه من دين وفن وأخلاق وفلسفة، وستظل الثقافة تُعنى بعلاقة الإنسان بتلك السماء التي هبط منها، فكل شيء في إطار الثقافة إما تأكيد أو رفض أو شك أو تأمل في ذكريات ذلك الأصل السماوي للإنسان. تتميز بهذا اللغز، وتستمر هكذا خلال الزمن في نضال مستمر لحل هذا اللغز.

أما الحضارة، فهي استمرار للحياة الحيوانية ذات البعد الواحد، التبادل المادي بين الإنسان والطبيعة. هذا الجانب من الحياة يختلف عن الحيوان فقط في الدرجة والمستوى والتنظيم. هنا لا نرى إنساناً مرتبكاً في مشاكله الدينية، أو مشكلة "هاملت" أو مشكلة "الإخوة كرامازوف" إنما هو عضو المجتمع الغُفل، وظيفته أن يتعامل مع سلع الطبيعة ويغير العالم بعمله وفقاً لاحتياجاته.

الثقافة: هي تأثير الدين على الإنسان أو تأثير الإنسان على نفسه، بينما الحضارة هي تأثير الذكاء على الطبيعة أو العالم الخارجي. الثقافة معناها "الفن الذي يكون به الإنسان إنساناً"، أما الحضارة فتعني: "فن العمل والسيطرة وصناعة الأشياء صناعة دقيقة"، الثقافة هي "الخلق المستمر للذات". أما الحضارة، فهي "التغيير المستمر للعالم". وهذا هو تضاد: الإنسان والشيء، الإنسانية والشيئية.

الدين، والعقائد، والدراما، والشعر، والألعاب، والفنون الشعبية، والقصص الشعبية، والأساطير، والأخلاق، والجمال، وعناصر الحياة الأساسية والقانونية التي تؤكد على قيم الشخصية، والحرية، والتسامح، والفلسفة، والمسرح، والمعارض، والمتاحف، والمكتبات – يمثل هذا كله الخط المتصل للثقافة الإنسانية، الذي بدأ مشهده الأول في السماء بين الله والإنسان. إنه "صعود الجبل المقدس، الذي تظل قمته بعيدة المنال، سيراً في الظلام بواسطة شمعة مضيئة يحملها الإنسان".

حامل الثقافة هو الإنسان، وحامل الحضارة هو المجتمع، ومعنى الثقافة القوة الذاتية التي تُكتشب بالتنشئة، أما الحضارة فهي قوة على الطبيعة عن طريق العلم. فالعلم والتكنولوجيا والمدن والدول كلها تنتمي إلى الحضارة. وسائل الحضارة هي الفكر واللغة والكتابة. وكل من الثقافة والحضارة ينتمي أحدهما للآخر كما ينتمي عالم السماء إلى هذا العالم الدنيوي، أحدهما "دراما" والآخر "طوبيا".

الحضارة هي استمرار للتقدم التقني لا الروحي، والتطور "الدارويني" استمرارً للتقدم البيولوجي لا للتقدم الإنساني. تمثل الحضارة تطور القوى الكامنة التي وُجدت في آبائنا الأوائل الذي كانوا أقل درجة في مراحل التطور. إنها استمرار للعناصر الآلية – أي العناصر غير الواعية التي لا معنى لها في وجودنا. ولذا، فإن الحضارة ليست في ذاتها خيراً ولا شراً، وعلى الإنسان أن يبني الحضارة تماماً كما أن عليه أن يتنفس ويأكل. إنها تعبير عن الضرورة وعن النقص في حريتنا. أما الثقافة، فعلى العكس من ذلك: هي الشعور الأبدي بالاختيار والتعبير عن حرية الإنسان.

الحضارة تُعلَّم أما الثقافة فتُنَور، تحتاج الأولى إلى تعلُّم، أما الثانية فتحتاج إلى تأمُّل.

الفرق بين الحضارة والمدنية:

المدنية Civilness:

يعود هذا اللفظ (المدنية Civilness) إلى كلمة المدينة أو الحاضرة كما يسميها ابن خلدون. وقد ارتبطت بنظام الحكم اليوناني القديم: دولة المدينة، والذي شهد تطوراً مهماً في دولة أثينا، حيث انتقل الحكم فيها من سلطة كبار ملاك الأرض إلى الحكم الشعبي، عبر مراحل وبعد تشكل طبقة التجار والعاملين في هذا القطاع الذين كانوا لهم الدور الرئيسى في هذا التحول، والذي كانت أهم مراحله مع "كليستنيس" الذي وضع دستوره الجديد على ثلاثة أركان رئيسية 502 – 503 ق.م:

1. إعادة تقسيم المجتمع الأثيني على أساس جغرافي مكاني بدلاً من التقسيم الإداري القديم الذي كان على أساس القرابة والدم. وأصبح هذا التقسيم قاعدة للتنظيم الإداري وللحقوق السياسية.
2. بناءً على الرابطة المكانية الجديدة، أعيد تنظيم مجلس الشورى فأصبح يتكون من 500 عضو بدل 400 في التنظيم القبلي السابق.
3. وضع قانون "النفي" الذي بموجبه أصبح الأثينيون يستطيعون نفي أي زعيم سياسي يرون فيه خطراً على الديمقراطية بشرط أن يصدر ذلك الطلب عن 6000 من المجتمعين، ليصبح النفي قانونياً ويدون 10 سنوات.

فالمدينة إذن تعبر عن الانتماء للمدينة لا البادية أو الريق، وهو مدلول لنمط عيش، وسلوكيات، وعلاقات تختلف مع ثقافة الريقيين وسكان البادية.

وقد ظهر تعبير "المجتمع المدنى Civil society" كمدلول حضاري مستحدث لعلاقة الأفراد في المجتمع فيما بينهم وعلاقتهم بالدولة. وقد تغير هذا المفهوم وتطور بدءاً بالأصول اليونانية الكلاسيكية، ومروراً بالفكر القروسطي، وانتهاءً بالحداثة.

وقد نشأ هذا المفهوم مرتبطاً بالفلسفة السياسية اليونانية حيث يرى "سقراط Socrates" أن المشاكل يجب أن تحل بالنقاش وتبادل الرأي العقلاني بين الناس.

أما "أفلاطون Plato" فقد رأى أن المجتمع المدني هو المجتمع العادل الذي يسمح للجميع أن يعملوا لخدمة الصالح العام.

ولم يشذ المعلم الأول "أرسطو Aristotle" عن أستاذيه فهو يعبر عن المجتمع المدني بوصفه "جمعية جمعيات" ولم يميز بين الدولة والمجتمع المدني، ودعا إلى تكوين مجتمع سياسي تسود فيه حرية التعبير عن الرأي، ويقوم بتشريع القوانين لحماية العدالة والمساواة مجموعة سياسية تخضع لقوانين حسب قوله.

أما المجتمع المدني في الفلسفة الأوروبية:

انطلاقاً من كونه مصلحة المجتمع تتحقق من خلال عمل كل فرد على تحقيق مصلحته الخاصة عند الليبراليين، وانطلاقاً من مذهب علمانى في موقفه من الدين، فردي في موقفه من المجتمع، رأسمالي في موقفه من الاقتصاد، ليبرالي ديمقراطي في موقفه من الدولة. وعلى التزام الدولة بعدم التدخل في الشؤون الخاصة للأفراد وتقليص دورها وحصره في السهر على تطبيق القانون وحمايته، فلا يجب أن يخرج مفهوم المجتمع المدني عن هذا السياق. فقد أكد "جون لوك" على قدرة الإنسان الكامنة في الدفاع عن نفسه وحريته وممتلكاته والقدرة على إلحاق الضرر بالآخرين، لذلك اقترح "لوك" ضرورة قيام المجتمع السياسي من سلطة تنفيذية وصلاحيات لمعالجة الخلافات وتنظيم حالة الفوضى وإيجاد الحلول للنزاعات التي تنشأ.

أما "هيجل Hegel" فقد تناول مفهوم المجتمع المدني استناداً إلى منهجه المثالي الجدلي القائم على اعتبار التاريخ مسرح لتطور الفكر المطلق، والدولة على أنها أرقى تمثيل للفكر المطلق، وإلغاء حرية الأفراد فيها باعتبارها مصدر الحريات، فهي تستوعب المجتمع المدني في داخلها كنفي جدلي لها، وانتهى إلى إلغاء الدولة للمجتمع المدني.

أما "ماركس Marx" في تفسيره للمجتمع المدني فقد ركز على العوامل المادية الاقتصادية وقلل من أهمية العوامل الفكرية والثقافية بناءً على الطابع التنافسي للمجتمع المدني بدل التكامل معتبراً أن التاريخ نتاج لصراع الطبقات، والمجتمع المدني هو ساحة للصراع الطبقي.

ويعطي المعاصرون من نشطاء المجتمع المدني مفهوماً هجيناً للمجتمع المدني هو: "سلطة مضادة" ليست ضد ولا مع السلطة، تنشط باستقلال عن الدولة وليست باستقلال عن مؤسسات ودول تمولها وترسم لها خطط عملها، لا تخرج عن المفهوم الفلسفي الليبرالي للمجتمع المدني القائم على تلطيف الصراع الطبقي.

ثالثاً: متى يبدأ الإنسان فى بناء حضارته:

إنَّ الإنسان قد تاهَ عن مساره وخرج عن قواعده العاصمة من ضنك الحياة وسوء المصير، ولا ينفعه شئٌ في مجال إعادة بناء نفسه إلا هذا الدين العظيم، لأن الإنسان الصالح صناعة الدين وثمرة الأخلاق ونتيجة التربية الطويلة عبر الأيام والليالي والسنين، وهو مثل البناء الراسخِ بثباتٍ مع عواصف النفوس والأيام إن كان أساسه قوياً أو هو كريشةٍ في مهبِّ الريح لو لم يؤسسه الإيمان والتقوى، فمن الناس كمثل الطود الشامخ لا تزعزعه المحن ومنهم من هو كالهباءة الشاردة في عماء الأحداث، وهو مثل البناء في أسسه وكمالياته أو في دمامة سلوكه ورائع تصرفاته، ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا

جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾]التوبة: 109]، والإنسان هو المقصودُ من إرسال الرسل وتنزيلِ الكتُبِ وتحكيم الشرائع في حياة البشر، والمَرْجُوُّ في كلِّ هداياتِ الأنبياء هو سعادة الإنسانِ بالإيمان، ومن الكُلِّياتِ الخمس لهذا الدين العظيمِ الحفاظُ على العرضِ والنَّسلِ والنَّفسِ والمالِ والدِّينِ، وكل ذلك لمصلحة الإنسان أينما كان.

إن الكعبة المطهرة هي أشهرُ مقدساتنا وأكبرُ معاقل التوحيدِ على الأرض، وقد حفَّها الله تعالى بالأمان وجعلها حرماً آمناً وكتب الصلاة فيها بمائة ألف صلاة، ولكنها ليست مقصودة بذاتها إلا لتُحَقِّقَ مرابحَ الإيمان وتعلو عليها قيمة الإنسان، روى عبد الله بن عمرو بن العاص قال: (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول ما أطيبك وما أطيب ريحك ما أعظمك وما أعظم حرمتك والذي نفس محمدٍ بيده لحرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمتك ماله ودمه) (المنذري في الترغيب والترهيب 3 /267 بسند حسنٍ أو صحيحٍ أو ما يقاربهما)، فالإنسان هو الأقدس والأعظم حرمةً لأنه مخلوقٌ من روح الله مالك الكون، قال الله تعالى :﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾]الحجر: 29.[

وإن الإيمان يُسْفِرُ بنوره الوضاء على حياة الخلق من باب الإنسانية، حيث يحفظُ عليهم آدميتهم إلى أبعد مدى ويراعي حاجات الإنسان المادية والروحية والفكرية فلا يتركهم في باب الأدبِ هَمَلاً ولا يَرْقَى بهم رُقِيّاً ملائكياً بعيداً عن قُذُراتِ البشر ولا يتركهم لنزَغَاتِ شياطين الإنس والجِنّ يغتالون فيهم جمال إنسانيتهم.

والناس تختصر المعاني في دروب حسن التدين متصورين أن المفترض في المتدينين أن يكونوا على الدوام أشباهَ الملائكة ويتوهمون أنهُ من الإنسانية أن لا يقترف ما يقترفه بقية البشر وتَعَجَّبُوا في قديم الأزمان من الممارسات الإنسانية التي تكتنف حياة الأنبياء والرسل فهم يأكلون ويشربون ويحزنون وينامون ويمرضون ويعملون! قال الله تعالى :﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾

]الفرقان: 7، 8] وكيف ذلك والأنبياء كانوا من البشر يتزوجون ولهم مطالب بدنية ويتفاعلون مع الناس بالمشاعر الإنسانية المشتركة، قال الله تعالى :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾]الفرقان: 20]، ولكنهم مع ذلك كانوا في أرفع مستوى من الإنسانية الحقَّةِ التي تُعَبِّرُ عن حسن استخلاف الله في الأرض.

وقد صاغ الإسلام العظيم جنس العرب ومن انضم إليهم من بقية الأجناس صياغةً إنسانيةً رائعةً بعد أن نقلهم نقلةً نوعيةً من براثن الأصنام والفواحش والتظالم إلى التوحيد والتطهر والعدل، قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه لنجاشي الحبشة وهو يعرض عليه هذه الدرر الحسان: (... أيها الملك: كنا قوما أهل جاهليةٍ نعبدُ الأصنامَ ونأكلُ الميتةَ ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيءُ الجوار، يأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، قال: فعدد عليه أمور الإسلام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحلَّ لنا...) (أحمد شاكر في مسند أحمد 3 /180 وقال: إسناده صحيحٌ عن أم سلمة هند بنت أبي أمية في حديثٍ طويلٍ)، وعلى هذا النسق من التأسيس كان بناء الإنسان في جوانب العقيدة والأخلاق والعبادات والسلوك مع مراعاة حق الخالق الأعلى وحقوق العباد.

وقد سار المسلمون على هذا النهج القويم قروناً طِوَالاً وغيَّرُوا وجه الدنيا وقد أضاؤوها بالعدل والسلام لما ملكوها، وكانت المرحمة هي المعلم الساري في جنبات التاريخ الذي جثا يسجل هذه السجايا الطيبة للفرد المسلم الذي رباه الإسلام.

وانطلقت حضارة الإسلام لتمنح الدنيا عطاءً علمياً غير مسبوقٍ في مجال الطب والفلك والهندسة والحراثة وعالم البحار، مع مراعاة أوامر الدين وأحكامه فكان الفرد المسلم عملةً نادرة في عطائه وحسن توقيعه في الحياة جامعاً بين كرامة الدنيا وفضل الآخرة.

واليوم قد تغير بنا الحال وتبدل المآل حيث صارت الكلمة العليا للحضارة الغربية المعاصرة فطفق أبناؤها يُمْلُون للزمان شنيع فعالهم وردئ أخلاقهم، وزيفُ الحضارة المادية العرجاء يرسل زيوفاً من أشعة الكذب والمخادعة لكل العالم ليوهم العقول الكليلة بأن حضارة الغرب قد حققت لبنيها السعادةَ والعافيةَ والرقيَّ الأخلاقيَّ، وهذا وهمٌ وضربُ خيال، بل إنه هو عينُ المحال.

إن الحضارة المادية قد نجحت بامتيازٍ في الجانب العمراني والتقني وأرست قواعدها بإبهارٍ وخطفت الأبصار تحدوها دروس التقليد والإتباع اللاهث، بينما رسبت رسوباً مدوياً في بناء الإنسان ورعاية إنسانيته وتنمية مشاعره وإمداده بمنظومةٍ رائعةٍ من مكارم الأخلاق وروائع الشيم.. فمات فيهم الإنسان واستيقظت فيهم الشهوات والمآرب والرغائب، وصار الفرد هناك مهتماً حتى النخاع بشهواته وماله وملبسه وشكله على حساب روحه وأخلاقه، وقد عدَّ نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم هذا كله من باب الانتكاس والتعاسة ودعا على من كان هذا حاله بقوله: (تعسَ عبدُ الدِّينارِ، وعبدُ الدِّرْهَمِ، وعبدُ الخميصَةِ، تعسَ وانتَكسَ وإذا شيكَ فلا انتَقَشَ) (الألباني في صحيح ابن ماجة 3353 بسندٍ صحيحٍ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه)، ولا شك أن الفرد بلا إيمانٍ صادقٍ راسخٍ يعيش مثل الريشة في مهب الريح، همه هواه وسعيه فقط لدنياه والله عز وجل يقول :﴿ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾]الشورى: 20]، ويقول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم: (مَن كانتِ الآخرةُ هَمَّه جعل اللهُ غِنَاه في قلبِه وجَمَع له شَمْلَه، وأَتَتْه الدنيا وهي راغمةٌ، ومَن كانت الدنيا هَمَّه جعل اللهُ فقرَه بين عَيْنَيْهِ، وفَرَّق عليه شَمْلَه، ولم يَأْتِهِ من الدنيا إلا ما

قُدِّرَ له) (الألباني في صحيح الجامع 6510 بسندٍ صحيحٍ عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه).

لقد مات الإنسان الذي صنعته حضارة الغرب بمشاعره الإنسانية، إنه يشاهد كل يومٍ بانتظامٍ مشاهد القتل والترويع من أحبائه وبني جلدته وبني دينه للعزَّلِ والضعفاء والأبرياء من العجزة والأطفال والنساء من أهل العرب والإسلام دون أن تُحَرِّكَ في همته الكليلة نحو العدل فتيلاً، إنه يشاهد هذه المفجعات وهو يتسلى أو يتناول الطعام ويسمع عنها وهو يقود سيارته.. لقد ماتت فيه الإنسانية، لم يعد يهتز من مناظر القتل ولم يعد يرثي للمظلومين وليس في خطة أيامه أبداً أن يقف في وجوه الظالمين.. لقد ماتت إنسانيته.

وأخيراً نستطيع القول أن الإنسان يبدأ في بناء حضارته حين ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الحقوق، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذٍ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها.

رابعاً: حضارة الموت وحضارة الحياه:

هل الإنسان لقيط في الفضاء؟ بلا جذور وبلا مصير؟ هل الحياة عبث ووهم؟ وهل الانسان والحياة بعض من الكون والوجود، وهل ذلك كله بلا معنى ولا هدف؟!

لقد حسم العلم قضية من أهم قضايا البشر، وهي قضية لا فناء في الكون أو في الوجود، فالفلسفة لا تعرف كلمة فناء، المادة لا تفنى ولا تستحدث صدفة في الكون ولا في الوجود، كل شيء من أبسط المخلوقات إلى أرقاها له غاية، لا ضربة لازب أو حظ، لا فوضى في الوجود أو في الفضاء (لا زبالة في الفضاء كما قال أحد رواد الفضاء).

فالكون والوجود سيمفونية خالدة، تتجدد ألحانها التي لا تفنى، فتتطور مكوناتها التي لا تضيع، فالخليقة دوماً في مخاض وولادة جديدة، تلك أمور نادت بها العقائد الدينية والوحي الإلهي لكي تخاطب عقل عصرنا.

كل إنسان في عالمنا المعاصر، وكل عقل مفكر، له أن يقرر اختياره بين حضارتين:

حضارة الموت. حضارة الحياة:

إننا نشهد في نهاية القرن العشرين حضارتين متناقضتين، فمن جهة وعند فئات كثيرة من الشعوب، بعد عن الإيمان والعقيدة وميل إلى الإلحاد أو (اللاأدرية) نعم ... لم يخل تاريخ البشر من ملحدين في جميع العصور. من دعاة الحياة للحياة، واللذة هدف، والإنسان كيان عرائزي واستهلاكي، والحياة تنتهي عند الموت، لأن الموت فيها هو محركها ونهاية مطافها.

ومن جهة أخرى شعوب كثيرة تسعى إلى العودة إلى القيم الروحية وتجديد العقيدة الإيمانية، ورغبة متزايدة في التعمق في مختلف أبعاد الأديان.

إنهم أصحاب حضارة الحياة كما أسميتها، لأنهم يؤمنون بالله، الحياة لا تنتهي عند الموت، وكما أن المادة لا تفنى فإن الفكر لا يفنى، والإمان لا يفنى، وإنما الموت انتقال وتطور وارتقاء.

أود أن اوضح أن "العقيدة" في حديثي هي "عقيدة الإيمان بالله الخالق الألف والياء، البداية والنهاية. والإيمان باليوم الآخر".

أو ببساطة شديدة أقصد بالعقيدة أي دين يقول بأن الله الواحد هو الخالق وبأن الإنسان مصيره إلى الله.

إن الأديان التي تؤمن بالإله الواحد الخالق قد تختلف في التصورات وفي العقائد وفي كلماتها عن الله، ولكنها تؤمن به وتتوب إليه، إنه "الكائن الأبدي" كما

تقول التوراة، وفي الإنجيل "أنا هو الرب إلهك لا يكن لك إله غيري"، وهو الإله الواحد القيوم الذي خلقنا وإليه مصيرنا وإنا لله وإنا إليه راجعون، على حد قول القرآن الكريم.

أساس عقيدة الأديان المؤمنة بالله الخالق أنه الله أكبر، أكبر من كل تصور وفكر وقول. المتعالي على كل المخلوقات والعلوم والفلسفات، وهو الموجود في هذه المخلوقات بحكمته وخلقه الدائم، وهو الحي الرحيم الرحمن، الله المحبة، يهتم بالإنسان ويسبغ عليه نعمته ورحمته على كل إنسان. والإيمان والقيدة بالله واليوم الآخر ليس إيماناً نظرياً، بل هو حركة والتزام وموقف أخلاقي وعقلي وحياتي، فالمؤمن ينسب كل شيء إلى الله كمرجع أساسي، فالإيمان يقين يملأ العقل والوجدان والسلوك، وهو رسالة حب لله ولكل إنسان، فالمؤمن عضو في أسرة، في المجتمع، في إنسانية، والإنسانية أسرة الله، وبرغم الاختلاف في الرؤية والتصور إلا أن هذا الاختلاف ينجم عن عظمة الله قداسته، لا نهايته، لا تسعه السماوات والأرض، وقصر عقل الإنسان، فمن ذا الذي يمتلك الله ؟ ومن ذا الذي يستوعب فكرة "الله" ؟ ومن ذا الذي يقوم إني أفهم من هو الله ؟!

ولذلك جاءت لغة المتصوفين في كل الأديان المؤمنة بالخالق الإله الواحد لغة واحدة، لأنها لغة الوجدان وثمرة التأمل، والذوبان في الذات المقدسة، وكلهم مسلمون ومسيحيون أو يهود يقولون: امتلكني يا الله.

لا ننكر أن العلوم قدمت خدمات جليلة للعقيدة، أكدت الإيمان، لا صراع بين العلم وبين، هذه أكذوبة ... تقدمنا في العلوم، غزو الفضاء، غزو أسرار الأرض، غزو خبايا النفس البشرية، كلها أمور تكشف أكثر عمق وصدق الحقيقة الكبرى، الله موجود (الكتاب المقدس).

لقد قدمت حضارتنا المعاصرة للعقيدة أجل الخدمات، وكذلك يمكن للعقيدة أن تقدم بدورها لحضارة العصر خدمات أجل، وذلك كله لإسعاد بني البشر:

أ. كل العلماء الذين ينكرون وجود الله، يقرون بأنهم لا يملكون برهانا واحدا على عدم وجوده، وإنما الأديان لا تقنعهم كما أن قوانين الطبيعة لا تقنعهم، ويعترفون بأن بعض البشر يقول لا لوجود الله، لكن لا يوجد علم بقول لا لوجود الله.

ب. الحضارة المعاصرة تكتشف كل يوم مزيداً من أسرار الطبيعة والوجود والفضاء ومع كل اكتشاف جديد يتعمق "السر" في معنى هذا الوجود. إن كل مادة تحمل سراً مغلقاً لم يستطيع العلم حل لغزه، والعلوم لم تستطع أن تجيب على أسئلة الإنسان، لأن الإنسان موضوع أساسي مستقل عن العالم وعن الطبيعة، وإن ارتبط بها عضوياً.

إن الحضارة المعاصرة وبخاصة منذ القرن الثامن عشر قرن الإلحاد كظاهرة وفلسفة ونظرية قد جعلت الإنسان في مواجهة الله، أو أقامت خصومة بين العقيدة والعلوم، ولكنها أخيراً اكتشفت أن الله في قلب كل شيء حتى في المآسي والكوارث.

ج. كل العلوم تنطلق في دراسة المادة من نقطة كيف؟ كيف يحدث الألم؟ كيف يأتي الطفل؟ كيف تنطلق الكهرباء والطاقة، كيف نخترق الفضاء ونعيش في القمر؟؟

لكن العلوم عجزت عن الانطلاق من كلمة لماذا؟ لماذا يحدث الألم؟ لماذا يأتي الطفل؟ لماذا تنطلق الكهرباء والطاقة؟؟

لقد سجل العلم أن أجمل كوكب في الفضاء عرفه الإنسان بطبيعته الخلابة هو النجم ساتورن، فلماذا؟ إن مسيرة العلم البحث عن الحقائق الملموسة المحسوسة، لكنها لا تستطيع أن تخترق مسيرة الإيمان وخبرة القيم الروحية وجمال ونقاء الضمير، وسمو لحظة الصلاة.

د. اكتشفت الحضارة العلمية المعاصرة أن للإنسان أبعاداً ثلاثة جوهرية يقوم عليها كيانه:

بعد علمي يسعى للمزيد بالفضول والمغامرة، وفيه غريزة اكتشاف المجهول. بعد فني يتذوق الجمال والخير، وفيه غريزة الإبداع.

بعد روحي يتوق للخلود والأزلية، وفيه غريزة البحث عن الله وعن معنى الوجود والمصير.

وهذه الأبعاد من مكونات "الشخص البشري" فهي مترابطة متصلة. والتوازن بينها هو توازن لشخصية الإنسان، ولكن الحضارة المعاصرة أصيبت بالعرج لأنها حاولت أن تبرمج الإنسان برمجة علمية، فتمده بالأمان المادي والترف الحسي، وأن تخلق منه كائناً خالياً من طاقته الروحية، فسجنته في غريزة "حب الامتلاك" وأصيب الإنسان بفقدان توازنه واختلال حياته، وتمزق في مجتمعه، وبدا أن دور العقيدة والإيمان أصبح ملحاً ونحن على أعتاب القرن الواحد والعشرين.

نعم ... الإنسان ينتمي إلى الطبيعة، ولكنه كائن ينزع دوماً وبلا توقف وبإصرار تاريخي أن يخرج من نطاقها المحدود.

ثانياً: العقيدة في عالمنا المعاصر

1. العقيدة تعطي للإنسان هويتها الأصلية والحقيقة.
2. العقيدة تعطي للحضارة معناها الإلهى والروحى.
3. العقيدة مدرسة مدرسة للضمير الفردي والجماعي العالمي.

(1) العقيدة تعطي للإنسان هويتها الأصلية والحقيقة:

لنعترف أن العلوم برغم تقدمها الهائل فهي دوما ناقصة، متطورة. ولا زلنا نجهل ملايين المعلومات في كل شيء حتى أجسادنا التي نحيا بها لا تزال أسراراً غامضة يقف فيها العالم حائراً. ولنعط مثلاً: الذرة، في عام 1930 صرح العالم فيرمي Fermi: أننا اكتشفنا كل شيء تقريباً عن أسرار الذرة وفي عالم 1933 اكتشف النيوترون، ثم عام 1939 اكتشف اليورانيوم ثم توالت الاكتشافات: الطاقة الشمسية؛

الطاقة المغناطيسية، ثم اكتشفنا – وهو الأهم – أننا لا زلنا في بداية مدرسة علوم الطبيعة، ولا زلنا أطفالا صغاراً أمام سر الكون.

معنى ذلك أن القول الكريم "وما أوتيتم من العلم إلا قليلا" هو القاعدة الأساس، فالعلوم الناقصة لا تعطي للإنسانية هويتها أو سماتها الأصيلة.

لكن العقيدة الإيمانية الأصل: الله الخالق، والإنسان مصيره إلى الله، هذه هي الصفة الأساسية، والهوية الحقيقية للإنسانية. ومن هنا يأتي عدم التناقض بين الإيمان وبين العلم، فالله الخالق أكبر من كل علومنا، وهو مصدرها، وأكبر من كل عقولنا وهي نور من نور علمه ومحبته. فمهما تقدمنا في العلوم تبقى حقيقة الله هي الحقيقة الكبرى، ونقطة انطلاق الاكتشافات العلمية.

ومعنى ذلك أيضاً أن الإنسان المحدود سيظل دوماً محدوداً بالزمان والمكان حتى يلتقى بالله مرجعه، ليكتشف في عالم الله معنى ذلك كله وأسرار العلوم كلها، وهنا تعطي العقيدة فضيلة التواضع للإنسان، والإقرار بضعفه وجعله مهما تعلم ومهما اكتشف، ويظل الإنسان منتظرا الرجاء الأعظم؛ راحلا.

إن حضارة العصر كما ذكرنا تحاول أن تبرمج الإنسان وفق منهج علمي، وأن تشبع رغباته الحسية، ولكن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، فالإيمان خروج من نطاق الذات إلى الاتحاد بالله الخالق، ومن الطبيعة المادية إلى عالم ما وراء الطبيعة. فإن كان الله لا يراه الإنسان فإن الله يتجلى في كل مخلوقاته وإبداعاته. والإنسان تنظر غليه العقيدة على أنه خليفة الخالق صورته ومثاله، وليس مجرد حزمة غرائز أو حاجات بيولوجية. أن تضع الإنسان في قيمته فهو "لا شيء" بالنسبة للكون والوجود، وهو كل شيء بنعمة ربه واتحاده بخالقه.

(2) العقيدة تعطى للحضارة معناها الإلهى:

هناك نظرية تفسر التاريخ بأنه صراع بين المادة والروح، ولقد حسمت الحضارة المعاصرة الأمر وانضمت إلى قوة المادة، وظنت أنها سيطرت على عالم الروح وانتصرت عليه.

وهناك تفسير آخر للتاريخ بأن الفرد لا قيمة له، بل القوة والقيمة للمجتمع، فسحق الفرد وانتهكت حريته وكرامته من أجل رفعة المجتمع.

هنا يأتي دور العقيدة أو الإيمان، إنها تعتبر الفرد قيمة إلهية جوهرية، وليس المقصود هنا الفرد بمعناه الذاتي كشخص بشري. ضمن جماعة من الناس، أو كرقم من الأرقام كما أشارت إليه النظرية الشيوعية، بل المقصود هنا الإنسان المنتمي إلى خالقه، نفخة الله تبارك وتعالى، صورته الأزلية، كيانه الروحى الذي لا يفنى. كلفه الله برسالة محدودة؛ هي هذه الحياة وهذا العالم، ودعاه وزوده بكل النعم لتصبح الحياة أفضل وأكمل. إن الله لا ينظر إلى البشر كأرقام أو كجماعة، بل لكل إنسان مكانته عند خالقه، ولا ينقص هذا من قيمة الجماعة، إنما يفسر ذلك العلاقة بين الفرد وبين الجماعة، فلا الفرد يلغي رسالة الجماعة ولا الجماعة تلغي رسالة الإنسان الفرد، وإن كان زمن عبادة الأصنام الحجرية قد ولى، فلقد مرت البشرية بزمن أصنام جديدة: صنم التعصب للجنس، للمجتمع، أو صنم عبادة الطبيعة أو صنم العلم، أو صنم التعصب للجنس، للمجتمع، أو صنم عبادة الطبيعة أو صنم العلم، أو صنم عبادة الحاكم أو السلطان، أو المال أو القوة والجمال الحسي، تلك أصنام فشلت في إشباع الحاجة الروحية الأساسية عند الإنسان وظمأه للعدل والحرية والمساواة، ودر العقيدة أو الإيمان هنا، أن تربط الإيمان بالله، بقيمة الفرد في حد ذاته كشخص مستقل له كيان روحي قائم بذاته، وبقيمة المجتمع، كرسالة من الله لكل عضو فيه عليه واجب ترقيته ونموه، وبقيمة الأسرة البشرية، كعائلة واحدة خالقها الله وربها، والبشر إخوة.

لقد عرفت العصور الوسطى بأنها عصور الدين والحروب، تعذبت الإنسانية وراح الملايين ضحايا للخلط بين التدين الكاذب والمظهري وبين الإيمان كموقف أخلاقي وعقيدة روحية تبني وتنفي أعماق الفرد والجماعات، ثم بدأت فكرة تحرير الإنسانية من الاستعباد والظلم والتعصب والفقر، منذ القرن الخامس عشر الميلادي، وعرفت تلك الأزمنة بعصر النهضة، وخلال خمسمائة عام انقلبت فيها حياة البشر رأسا على عقب، من عصر اكتشاف القارة الجديدة، إلى عصر الدخول في العلوم وطاقات الطبيعة إلى عصر نهضة تقنية عظيمة إلى عصر اكتشاف كنوز الطبيعة ثم اكتشاف الفضاء، وامتلكت البشرية طاقات هائلة وها نحن على عتبة قرن جديد بعد كل هذه الانتصارات العلمية والإبداعات ترى ما أحوال الإنسانية؟ لم يزل الجوع يقتل الملايين والظلم يسحق الحريات في أماكن عدة، والثراء بين يدي قلة والأغلبية الساحقة من بني الإنسان تئن تحت وطأة الإهمال والاحتقار، نعم لا ننكر الإنجازات العظيمة ولكن البشرية في غالبيتها يائسة مجروحة متألمة. ليس الأمر تشاؤما أو تفاؤلا، بل الأمر واقع حي يعيشه الملايين في عذابات متصلة ويمكن أن نوجز ذلك كله في نقطتين: أن حياة البشر الأغلبية لم تتغير كثيراً بل لا تزال عرضة للتعسف وكبت الحريات وشتى المظالم، ومن جهة أخرى بقى الإنسان في أعماقه حائراً ضائعاً غريباً عن ذاته.

وهنا نشير إلى دور العقيدة والإيمان أمام هذه التحديات، أن رسالتها أن تخلق التوازن في أعماق الفرد بأن تمده بالرد على تساؤلاته الملحة عن معنى الحياة ومعنى الموت والألم، وعن معنى المسيرة البشرية، وأن تغرس في أعماق الجماعة روح العدل والمساواة، تستقيم الحضارة المعاصرة.

إن ما ينقص عالمنا اليوم هو الحس الروحي والوجدان الإيماني، فالرغبة في الله هي من صميم زرع الله في خلق الإنسان، وما يرضى النفس ويشبعها ليست المعلومات الغزيرة وإنما هو الشعور بالطبيعة والتذوق الباطني لها.

(3) العقيدة مدرسة للضمير الإنساني (للفرد – للجماعة – للشعوب)

إن العقيدة تطلب من المؤمن أن يكون "غير منحاز إلى الخليقة" بل "منحازا" غلى خلقه كمصدر وغاية ومرجع لحياته وموته، أو بلغة أيسر، العقيدة تجعل المؤمن حرا حرية داخلية تجاه المخلوقات، فكلها وسيلة توصله إلى الله، بل لست مسرفا إن قلت إن المؤمن بالله يفكر كما يفكر الله ويعمل وفق مشيئة الله، والكتب التي نقدسها ونعتبرها كلمات الله، موحاة من عنده تبارك وتعالى هي قنوات بين الأبدية والزمنية، بين المثالية المقدمة لنا والواقع الذي نحياه بكل تناقضاته وصعابه.

وهذه الكلمات المقدسة من مهماتها أن تظهر ضمير الإنسان وأن تصقله ولا تخضع لمقاييس المنطق البشري أو لتحليلات العقل، وغلا فقدت جلالها وسريتها، إنها خطاب إلى "ضمير" كل إنسان، لا يستوعبها إلا في التأمل وفي الصلاة، وفي الصمت، وهذا هو دور العقيدة أو الإيمان، أن يربي ضمير الإنسان وبالتالي ضمير المجتمع والإنسانية كلها.

إن الإيمان يقول بأن الله أحب الإنسان، وأن الله شمل الإنسانية برحمته، ونحن نعلم أن تاريخ الإنسان مأساوي في أكثر جوانبه وان الإنسانية لا تزال ناقصة ومزدحمة بالكوارث والأحزان، ومن هنا يأتي دور العقيدة أن تربط بين البشر جميعا في علاقة محبة وتكتل للتخفيف من هذه الآلام، لإعطاء الحقوق الإنسانية لكل إنسان وبخاصة للضعفاء والمهمشين والمعوقين، تلك من أهم عناصر دور العقيدة في حضارة اتسمت بأنانية شديدة إلى حد الوثنية، وعبدت القهر بكل صورها، وسجدت للمال واللذة، إنها حضارة الموت التي أشرنا إليها، ودور العقيدة أن تنمي في كل ضمير حب حضارة الحياة لكل فنون التضحية والنبل والفداء، إن العقيدة تقدم للعالم حضارة الحياة أو حضارة المحبة، فالضمير الذي يفرغ من المحبة يصبح سجينا.

وإن كانت عصور النهضة قد صنعت من الطبيعة العمل الرئيسي للإنسان لتبحث له عن الغذاء والراحة والرفاهية فإن العقيدة ينبغي أن تجعل من بناء ضمير الإنسان عملا لها، إن العلوم هي البحث عن الممكن تحقيقه أما الإيمان فهو البحث عن المثالية التي تبدو مستحيلة، إن المؤمن قد يحقق المستحيل بإيمانه لتغيير وجه هذا العالم ومسيرته، إن ازدحام الحياة بالمآسى والآلام والعنف والظلم والتعصب والكراهية ليس أمراً جديداً وعلى العقيدة بالمؤمنين أن تصحح أوضاع العالم، واذكر دوماً أن الإيمان موقف وأخلاق وسلوك عن اقتناع وعن إرادة وعن محبة.

الخاتمة:

أطرح سؤالاً ربما يخطر على بال الكثيرين: أية عقيدة ستسود العالم؟ أي إيمان سيسيطر على الإنسان؟

أقولها بصراحة وبساطة... العقيدة التي ستغزو العالم هي الإيمان بالله وبالإنسان، الإيمان بحضارة الحياة وحضارة المحبة والإيمان الذي سيسيطر على العالم هو الإيمان الذي سيغمر العالم بعدل اكثر، بمساواة أكثر، بحرية حقيقية أكثر، باحترام لكرامة الفرد والجماعة، الإيمان الذي سيقدم للعالم النبل النابع من تعاليمه، والسمو الذي يدعو إليه، الذي سيزرع الله المحبة والرحمة الاتكال عليه والرجاء في رحمته بين جميع الناس.

قائمة المراجع

- أبو زيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، القاهرة، مكتبة وهبة، 2012.
- أحمد فخرى: تاريخ مصر الفرعونية، الطبعة الأولى، القاهرة، 1957.
- إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، ترجمة: كمال أبو ديب، الطبعة الرابعة، بيروت – لبنان، دار الآداب للنشر والتوزيع.
- إدوارد كورنيش: الاستشراف مناهج استكشاف المستقبل، ترجمة: حسن الشريف، بيروت – لبنان، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى، 2007.
- أرنولد توينبي: مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة: فؤاد محمد شبل، الجزء الأول، الطبعة الأولى، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، والنشر، 1960.
- اشبنجلر، ت دهور الحضارة الغربية، ترجمة، أحمد الشيباني، بيروت، مكتبة الحياة.
- ألبرت شفايتزر: فلسفة الحضارة، ترجمة، عبد الرحمن بدوى، مراجعة، زكي نجيب محمود، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر.
- الجنحاني الحبيب: العولمة من منظور عربي، سلسلة المعرفة للجميع، ع. 19، 1998.
- المهدي المنجرة: الالتحام بين العلم والثقافة؛ مفتاح القرن الواحد والعشرين، الثقافة والمثقف في الوطن العربي.
- المهدي المنجرة: الإهانة في عهد الميغا إمبريالية، المغرب، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، الطبعة الخامسة، 2007.
- المهدي المنجرة: قيمة القيم، الطبعة الثانية، المغرب، المركز الثقافي العربي، 2007.
- المهدي المنجرة: الحرب الحضارية الأولى: مستقبل الماضي وماضي المستقبل، ط7، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 2001.